نظرية الأغراض والمقاصد عند الإمام عبد القاهر الجرجاني

من خلال كتاب دلائل الإعجاز

د. صافية دراجي – جامعة بومرداس

من نافلة القول أن الإعجاز القرآني كان إعجازا بيانيا على وجه الخصوص، وإن المقاصد القرآنية لا يمكن استشفافها ما لم نحط بالأداة اللغوية التي حملته واحتوته. وما لم نكن على دراية باللفتات البلاغية والدقائق التعبيرية التي نظم بها.

وإن كتاب دلائل الإعجاز من الكتب المتميزة في هذا المجال. بل يمكن اعتبار رائده "**عبد القاهر الجرجاني**" أول من خاض غمار الحديث عن البلاغة القرآنية استشفافا لمقاصد خطابه من خلال ثلاثية البيان والبديع والمعاني. وقد جاد بما لم تنتبه إليه الأوائل في ربطه بين المبنى والمعنى، وجمعه بين النحو والبلاغة وإقراره أن المعاني تبع للمباني التي تبنى عليها على حسب المقاصد.

وإنا في هذه المداخلة –بحول الله تعالى– نعتزم إعادة استنطاق كتاب "دلائل الإعجاز" الذي مازال يشكل طفرة فريدة ومتميزة. ولا يزال يعتد به حتى في أعرق الجامعات العالمية نظرا لما يحتويه من لئالئ علمية بيانية مقاصدية. وعلى الرغم من أن "**الجرجاني**" قد قدم كتابه مستقرئا مواطن الإعجاز القرآني إلا أنه قد أسندت إليه نظرية كاملة تسمى نظرية الأغراض والمقاصد.

التعريف بالإمام "عبد القاهر الجرجاني":

هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، ولد في مطلع القرن الخامس للهجرة في جرجان، وهي مدينة مشهورة في طبرستان وخراسان. تخرج من هذه المدينة الكثير من العلماء والفقهاء والمحدثين والأدباء. يكفي انها أنجبت أديبين كبيرين هما "القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، والإمام عبد القاهر الجرجاني. وكانت بيئتهم آنذاك تزخر بالنشاط العلمي، وكانت المذاهب والعقائد تنشط بحرية[1].

وفي مدينة جرجان الجميلة نشأ كما ينشأ غيره من الصبيان، ودرس علوم الدين والعربية كما درسها الآخرون، وقد هيأ الله له علما من أعلام النحو هو أبو الحسين محمد بن الحسين بن محمد بن عبد الوارث الفارسي النحوي ابن أخت أبي علي الفارسي، الذي نزل جرجان واستقر بها وأخذ عنه أهلها فضلا كثيرا، وكان عبد القاهر أحد تلامذته الذين تأثروا به ودرسوا عليه كتاب "الإيضاح" لأبي علي[2].

لكن "**الجرجاني**" لم يكتف بأن أخذ عن شيخه، وإنما قرأ الكتب بعقل واع، ونقل عن الكثيرين ممن اشتهروا باللغة والنحو والبلاغة والأدب، كسيبويه، والجاحظ والمبرد، وابن دريد العسكري، والمرزباني والفارسي، والآمدي والقاضي الجرجاني. وكان ثمرة ذلك أن تصدر بجرجان وذاع صيته وشدت إليه الرحال وقصده الطلاب، يقرأون عليه كتبه، ويأخذونها عنه، وظل مقيما في بلدته، يفيد الراحلين إليه، والوافدين عليه[3].

لقد تمكن "**الجرجاني**" من النبوغ في اللغة العربية رغم أنه ليس عربيا، وتمكن من تأليف كتب عدت مصادر قيمة في الثقافة العربية بلغة عربية قوية جعلت حجته اللغوية لا تختلف عن غيره من الأعراب الأقحاح.

---

[1] أحمد مطلوب: عبد القاهر الجرجاني- بلاغته ونقده، ط1 ، وكالة المطبوعات، الكويت، 1973، ص.ص 11، 12.

[2] المرجع نفسه، ص14.

[3] المرجع نفسه، ص 16.

آثاره:

حظي الإمام "**عبد القاهر الجرجاني** "بمنزلة عظيمة، وتصدر مجالس العلم والأدب، وكان إلى جانب علمه ورعا تقيا، ومما ورد في شذرات الذهب وفي طبقات الشافعية أنه دخل عليه لص وهو في صلاته، وأخذ جميع ما في بيته والجرجاني مستمر في صلاته لم يقطعها[1].

وتشير آثاره إلى أنه قد أحاط علمًا بما صنَّفَه السابقون عليه في علوم الدين والفلسفة والكلام والأدب واللغة، وأدلَى بدلوه فيما عرَضوا له من قضايا ومشاكل، بالإضافة إلى ما حُفِظ وجُمِع له من شعره .. ويرى أن في الانصراف عن هذه العلوم ابتعاد عن معرفة أسرار القرآن ومعانيه، ولذاك عقد فصلا للكلام عن الشعر وأهميته، وعلى النحو ومكانته، وانتهى إلى أن البيان والنحو والشعر عمدة المفسر، ووسيلة الدارس في فهم القرآن الكريم، وقد فصل القول في هذه العلوم في كتبه، وأوضح فضل البيان والشعر ورد ما كان شائعا في عصره من سوء فهم لها، أو انصراف عنها[2].

لعبد القاهر الجرجاني كتب كثيرة في الدراسات القرآنية والنحوية والبلاغية وغيرها، وصلنا بعضها وضاع البعض الآخر.

ويتَّضِح من آثاره إحاطته بما كتب أبو عمرو بن العلاء، والخليل، ويونس، والأخفش، وسيبويه، وابن قتيبة، وأبو هلال العسكري... وغيرهم.

ألف في الدراسات القرآنية كتاب **شرح الفاتحة**، وكتاب **درج الدرر في تفسير الآي والسور**،

[1] أحمد مطلوب: عبد القاهر الجرجاني- بلاغته ونقده، ص 17.
[2] المرجع نفسه، ص 12

كتاب **المعتضد** وهو الشرح الكبير لكتاب أبي عبد الله محمد بن يزيد الواسطي في إعجاز القرآن. وقد سماه بعضهم "إعجاز القرآن"، وسماه بعضهم "إعجاز القرآن الكبير"، أو "الشرح الكبير". وله كتاب رابع في الدراسات القرآنية يحمل عنوان:

الشرح الصغير، وهو شرح مختصر لكتاب الواسطي، وهذان الشرحان من كتب عبد القاهر لم تصل إلينا كما لم يصل إلينا كتاب الواسطي نفسه.

وكتابه الخامس في الدراسات القرآنية يحمل عنوان "**الرسالة الشافية**"، وهي في الإعجاز، وقد طبعت في كتاب بعنوان ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم[1].

كما "**اهتم عبد القاهر الجرجاني**" بأسلوب القرآن الكريم وطريقة نظمه وأسلوب سبكه ونمط تشكل معانيه فألف في الدراسات البلاغية مؤلفات مهمة تصب كلها في اثبات تفرد القرآن الكريم واعجازه البياني، فكان شيخ البيان في هذا المجال من خلال كتابيه المشهورين "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز" اللذان يعدان من أمهات الكتب العربية التي قامت عليها النهضة الأدبية والنقدية والبلاغية العربية.

قيمة كتاب دلائل الإعجاز:

كان "**الزمخشري**" (ت 538هـ) أول من درس كتابي "دلائل الاعجاز" و"أسرار البلاغة" دراسة عميقة وتمثلهما تمثلا منقطع النظير وبنى عليهما الكشاف الذي كان تفسيرا بلاغيا إلى جانب مافيه من قضايا عقائدية ودينية ... لقد قرر الزمخشري أن المفسر بحاجة إلى البلاغة، وأن علم التفسير لا يتم لتعاطيه وإحالة النظر فيه إلا بمعرفة علمين مختصين بالقرآن هما علم المعاني وعلم البيان. ولو تابعناه في تفسيره لوجدناه يتخذ

[1] أحمد مطلوب: عبد القاهر الجرجاني- بلاغته ونقده، ص.ص 25، 26.

من البلاغة وفنونها أصلا في فهم الآيات وتوجيه المعنى، ويتخذ من بلاغة عبد القاهر أساسا له. حتى يمكن أن نعد الكشاف الجانب التطبيقي لبلاغة عبد القاهر وآرائه[1].

ونظرا للقيمة الكبيرة لكتاب "دلائل الإعجاز" وحتى كتاب أسرار البلاغة فقد كان للشيخ محمد عبده فضل السبق في تدريسهما في جامع الأزهر الشريف.

فحضي الأزهر الشريف بفضل السبق في تدريس هذين المؤلفين المهمين، فكان أول معهد من معاهد التعليم الديني الذي درس لطلاب البلاغة هاذان الكتابان.

كما كان "**أمين الخولي**" أحرص الناس على تدريس هذين الكتابين، كونهما أساس البلاغة، ولم يحذ عن هذا المبدأ العلماء بعده، لأنهم وجدوا فيه أصول أحدث النظريات النقدية التي ظهرت عند الغرب في العصر الحديث والمعاصر[2].

ومن المعلوم أن "**الجرجاني**" لم يتناول في كتابه هذا أدلة الاعجاز الكلامية والمنطقية، لكنه عني بإعجاز القرآن من زاوية بلاغية، أو من زاوية تخصصه اللساني والأسلوبي. حيث أوضح أن اتقان تأليف جمل الكلام وتراكيبه والتفنن في نظمها وحسن صياغتها هو طريق البلاغة والاعجاز[3].

عندما تناول الدرس الحداثي العربي كتاب "دلائل الاعجاز" بالدراسة كانوا في مجملهم يتوزعون بين اتجاهين.. اتجاه تقليدي بقي ينزع نحو آراء البلاغيين القدامى واعتمدوا على مدرسة السكاكي والقزويني والتافتازاني في فهمهم لآراء عبد القاهر.

---

[1] أحمد مطلوب:عبد القاهر الجرجاني- بلاغته ونقده، ص 306.

[2] المرجع نفسه، ص.ص 28، 29.

[3] عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تقد علي أبو زقية، دط، موفم للنشر، 1991، ينظر مقدمة الكتاب، ص5

واتجاه ثان حاذ تماما عن الفهم التقليدي والركون إلى مدرسة التراث البلاغية، حيث تأثر أصحاب هذا المبدأ بالدراسات اللسانية الحديثة في أوربا والغرب، ووجدوا في آراء عبد القاهر ما حملهم على فهم المعاني التي اهتم بها عبد القاهر وأعطاها السهم الأكبر في مباحثه البلاغية خاصة في الدلائل. والمعاني التي قصدها الجرجاني ليس ما أسماه البلاغيون بعلم المعاني إنما هي المعاني التي تعتبر جزءا من اللسانيات[1].

والجميل أن كتاب الدلائل لم ولن ينقضي بكثرة التدارس، وإن له نقاط التقاء مع معظم المدراس والنظرية الغربية الحديثة ليثبت أنه لايزال ثابتا مع الزمن، وأن الجرجاني له قدم سبق وصدق في التعامل العلمي مع اللغة والأدب والنقد عموما.. وإثبات إعجاز القرآن الكريم وكان هذا هو مقصده منذ البداية.

نظرية النظم الجرجانية:

إن الناظر في المؤلفات القديمة اللغوية والنحوية يدرك قيمة هذا التراث الضخم الذي تركه لنا السلف، ويدرك أيضا الجهد والمعاناة التي بذلها اللغويون والنحاة في جمع مادتهم ودراستها والتمعن فيها لتقعيد القواعد النحوية ووصف الظواهر اللغوية[2].

و"**الجرجاني**" من بين هؤلاء العلماء الذين حملوا على عاتقهم رسالة خدمة كتاب الله وخدمة اللغة العربية، وكان يرى في ذلك عبادة وقربى من الله سبحانه وتعالى .. ويعتقد أن كل مؤمن مخلص عالم ينبغي أن يجتهد في خدمة كتاب وخدمة الوعاء الحامل لهذا الكتاب وهو اللغة العربية.

هذه اللغة التي رفع الله شأنها ليجعلها لغة تختتم بها رسالة الوحي، وجعلها قالبا يحمل سر الإعجاز القرآني، تلك الحجة البلاغية –البيانية الكبرى والمعجزة العظمى التي يقف أمامها القاصي والداني موقف

---

[1] عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص7.

[2] خليل أحمد عمايرة: المسافة بين التنظير النحوي والتطبيق اللغوي – بحوث في التفكير النحوي والتحليل اللغوي، دار وائل للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2004، ص291.

الضعيف المستكين الذي لا يمكن أن يفكر في تحد يدرك منذ بدايته أنه المهزوم في المعركة.. وقد صدقهم الوليد بن المغيرة وهو في شركه قوله: "إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ولا يعلا عليه، وما هذا بقول بشر".. وما اتهامه النبي صلى الله عليه وسلم بالسحر إلا نتيجة لهذا الانبهار العجيب لعجيب نظم القرآن وبيانه المميز وبلاغته المتفردة.. وإن اعترافه هذا إنما هو شكل من الهروب من قدرة البشر المحدودة إلى قدرة الأرواح الأخرى التي كانوا يؤمنون بها والتي يعتقدون بقواها الخارقة التي تجعل المستحيل ممكنا.

لقد أثمر الجهد المضني لإمام البلاغيين الإمام عبد القاهر الجرجاني عن نظرية لم يسبقه إليها أحد وهي نظرية النظم التي تقوم على مبدأ الأغراض والمقاصد.

والنظم عنده توخي معاني النحو فيما بين الكلم كما يقول: "معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض"[1]. فلا يمكن النظر في المعنى إن لم ننظر في المبنى الكلي للعبارة، ولا يمكن أن يكون المبنى سابق للمعنى.. فهما ملتحمان وكأنهما وجهان لعملة واحدة. وهذا التلازم وهذا الالتحام من أجل إيصال معنى محدد، رسالة معينة وعلى المتلقي أن يفهم المقصد من الخطاب الموجه.

ثم إنه لا يمكن الاستهانة بالقواعد النحوية، إذ لم تكن يوما مجرد شكل مجرد، إنما هي أصل النظم. أو كما يقول "**الجرجاني**": "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها، وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه"[2].

---

[1] عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ، ص9

[2] المصدر نفسه: ص94

فدقق "**الجرجاني**" في الفروق النحوية التي تجعل الكلام يختلف عن بعضه البعض، مما يجعل بناء العبارة يختلف باختلاف المعنى، والغرض المرمى من وراء هذا البناء. علما أن "النظم يتسم بطابع خلاق، فهو ذو طاقات ابداعية لا حصر لها"[1] وما فتئ يضرب لنا أمثلة مستقاة من الواقع اللغوي المعتمد مع بلاغة القرآن الكريم، أو مع بلاغة البيان الذي أنتجته القريحة العربية الصافية التي رضعت من البيان وتغذت من البديع وكان لها إدراك عميق بأسرار الدقائق اللغوية والبيانية في ذلك العصر الذهبي.

ومعرفة الفرد بالدقائق النحوية، ومعاني النحو وأحكامه أصل نظرية النظم الجرجانية. يقول الجرجاني: "فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه"[2].

يعد النظم عند "**الجرجاني**" عمود فلسفته البلاغية، وأساس دلائل الإعجاز، بل هو الركن الذي يأوي إليه الاعجاز، إنه يرفع النحو مكانا عليا، ويرتكز عليه في كل منطلقاته[3] .

لنؤكد مرة أخرى أن مع نظرية النظم تكون المعاني تبع للألفاظ. ولا مزية للفظ دون المعنى، ولا قيمة للمعنى أن لم يبنى في نحو دقيق المسالك، علما أنه "إذا تغير النظم فلابد حينئذ أن يتغير المعنى"[4]. حتى لو كان التغيير يبدو للناظر بسيطا.. كقولك قام زيد والقائم زيد وإن زيدا قائم، وإن زيدا لقائم.

ودائما مع تداخل اللفظ والمعنى، وتعالق المعنى بمعنى المعنى يقول "الجرجاني": "ولا يكون لفظه أسبق إلى سمعك من معناه إلى قلبك، وقولهم يدخل في الأذن بلا إذن فهذا مما لايشك العاقل في أنه يرجع إلى

---

[1] محمد عمر الصماري: النحو والنظم عند عبد القاهر الجرجاني، أعمال ندوة عبد القاهر الجرجاني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة صفاقس، الجمهورية التونسية، ص17

[2] عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ، ص95.

[3] محمد عمر الصماري: النحو والنظم عند عبد القاهر الجرجاني، ص11.

[4] عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ، ص 252.

دلالة المعنى على المعنى، وأنه لايتصور أن يراد به دلالة اللفظ على معناه الذي وضع له في اللغة، ذلك لأنه لا يخلو السامع من أن يكون عالما باللغة وبمعاني الألفاظ التي يسمعها، أو يكون جاهلا بذلك، فإن كان عالما لم يتصور أن يتفاوت حال الألفاظ معه فيكون معنى لفظ أسرع إلى قلبه من معنى لفظ آخر، وإن كان جاهلا كان ذلك في وصفه أبعد"[1].

لقد أطال "**الجرجاني**" الحديث عن النظم وربط بها اللفظ والمعنى والصور البيانية واعجاز القرآن الكريم، وبذلك كان صاحبها وكاشف أمرها. وقادته هذه النظرية إلى تغيير مفهوم اللفظ والمعنى الذي خاض فيه النقاد والبلاغيون، وانتهى إلى أن الألفاظ لا تراد لنفسها، وإنما تراد لتجعل أدلة على المعاني، وإن تغييرها قد يفقد الكلام غرضه ورونقه، وانتهى إلى أن العمدة في الصورة لا في اللفظ مجردا من الدلالة ولا في المعنى وحده[2]. فكان النظم بذلك استغلالا أمثل لامكانات النحو بمعانيه ووجوهه وقوانينه وأصوله ومناهجه ورسومه وأحكامه وفروقه[3].

وتمكن "**الجرجاني**" بما أوتيه من دقة مسلك وفهم عميق لأسرار اللغة العربية من الجمع بين النحو بدقته واللاغة بسعتها وإمكاناتها التعبيرية المثلى.

---

[1] عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ، ص 254.
[2] أحمد مطلوب: عبد القاهر الجرجاني- بلاغته ونقده، 6
[3] محمد عمر الصماري: النحو والنظم عند عبد القاهر الجرجاني، 17

نظرية الاغراض والمقاصد الجرجانية:

اهتمت جل الدراسات المتعلقة بالتواصل والدلالة والمعنى بالمقاصد أو المقصدية، والقصدية أو ما يسمى في العرف البلاغي بنظرية الأغراض، أو معنى المعنى. فلا يمكن لأي خطاب مهما كان نوعه وشكله وصنفه ألا يحمل مقصدية معينة، ورسالة محددة..

والحديث عن المقاصد هو حديث عن كل تواصل انساني يبتغي ايصال رسالة معينة.

وقد اهتمت الدراسات البلاغية والتداولية والتشريعية بالمقاصد. وهي لا تختلف إطلاقا في مبادئها مادام التعامل هو تعامل لغوي لساني. فإذا كانت الدراسات البلاغية والتداولية تهتم بالمقاصد لغايات أخرى فإن الدراسات الشرعية تهتم بها لذاتها استشفافا لمقاصد القرآن الكريم.

ومن المعلوم أن للتشريع الإسلامي مقاصد وغايات يهدف إلى تحقيقها في هذه الحياة، وهي مقاصد ارتضاها الله تعالى لخلقه، وأمر بالعمل بها. ومقاصد الشريعة نتاج تشريعات إلهية، أنزلها الله –جل شأنه– على رسوله محمد –صلى الله عليه وسلم– في نصوص معجزة في صياغتها ومعانيها، وهي مصدر الأحكام والقيم والارشادات والتعاليم التي ينبغي على البشر ان يكيفوا حياتهم وسلوكهم وفقها، جلبا للمصلحة ودرءا للمفسدة، وإقامة للحق والعدل.

والقرآن الكريم دستور سماوي موجه للبشرية جمعاء تعمل بمقتضاه، وتنظم شؤون حياتها، ولابد للدستور من لغة تحمله، يوصل عن طريقها رسالته، وبلغة مقصده، ومن البديهي أن يتقن المتلقي هذه اللغة ليصله المقصد كما قصد، والمعنى كما عني به، وفهم اللغة يقود إلى العمل بها وتحقيق أهدافها ومراميها كما أرادها الشارع –جل وعلا[1].

[1] عبد الرزاق عبد الرحمن السعدي: أثر البلاغة العربية في الكشف عن مقاصد الشريعة، مجلة التجديد، المجلد 12، العدد 24، ص79.

واللغة العربية ثرية ودقيقة وعميقة ومقاصد الشريعة والقرآن كلها مبنية عليها وعلى مدى معرفتنا بأسرارها واحكامها ودلالاتها. وهي لغة صريحة احيانا وضمنية أحيانا أخرى، إذ إن مقامها الجمالي والبلاغي يضطرها لان تتخفى بأقنعة المجاز والتمثيل. لذلك كان لها مقاصد نصل إليها من خلال ظاهر اللفظ دون جهد وهو ما يسمى بالمعنى، أو المعنى الحرفي، وهنا يكون الخطاب مباشرا، وظيفته الإبلاغ وفقط، وقصده ايصال المعنى بأسهل طريق، فيتوجه إلى المخاطب توجها مباشرا.

وهناك مقاصد خفية لا نصل إليها إلا بعد أن نستعمل كل مدركاتنا الذهنية واللغوية نظرا في السياق اعتمادا على الاستدلال، وهذا ما أسماه الجرجاني بمعنى المعنى، ويسمى في عرف الدراسات الحديثة بالمعاني الإيحائية، أو المعاني العميقة أو المعنى الاستنتاجي في مقابل المعاني السطحية.

وحسب "**الجرجاني**" "فالمعنى هو الذي يتحكم في اختيارات المتكلم اللفظية والتركيبية، واكتشاف معنى المعنى أهم مرحلة من مراحل فهم النص"[1].

واستشفاف معنى المعنى أو مقاصد القرآن الكريم لا يكون إلا بمعرفة دقائق اللغة العربية، وبقدر ما يلم الفرد بنحوها وصرفها وتركيبها وبنائها وفقهها ومعانيها ودلالات ألفاظها، وبقدر ما يكون للفرد من ذائقة لغوية شعرية – بيانية. بقدر ما تكون له مقدرة على استشفاف مقاصد القرآن الكريم. "إن لغة الكتاب هي اللغة العربية الصحيحة الفصيحة، وإن مقاصد الشريعة مبنية عليهما، وإن الكشف عن هذه المقاصد متوقف على الإحاطة بعلوم اللغة العربية إحاطة تؤهل الفرد إلى حل رموز اللغة ومعرفة أسرارها، واستيضاح معاني مفرداتها ومركباتها، واكتشاف عمقها الدلالي"[2].

---

[1] عقيلة مصطفى: نظرية المعنى ومقاصد الخطاب من خلال دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، العدد 19، 2013، ص22.

[2] عبد الرزاق عبد الرحمن السعدي: أثر البلاغة العربية في الكشف عن مقاصد الشريعة، ص.ص 79، 80.

إن استنباط المقاصد لن يتمكن منه من لم ينبغ في اللغة العربية، ولم يدرك سر نظمها وعمق بيانها وجمال بديعها ودقة معانيها. وإن كان ذلك يستوجب سبر أغوار التفاسير ومعرفة أسباب النزول. خاصة بالنسبة لهذا العصر.. فكلما ابتعدنا عن زمن البعثة.. حيث كانت اللغة العربية في أوج رقيها كلما احتجنا إلى إعانة ممن سبقنا لفهم القرآن الكريم ومعرفة مقاصده. وهذا راجع لأسباب عدة من بينها نقص الذائقة اللغوية، ثم مع ما وقع ويقع للغة العربية من تطور دلالي جعلها على غير ما كانت عليه في عصرها الذهبي، (من العصر الجاهلي إلى غاية العصر العباسي).. رغم أن العباسيين أنفسهم كانوا يشتكون من بعد الاطار الزماني للعصر الجاهلي والاسلامي ما جعل لغتهم ينقص مستواها مقارنة مع ما كانت عليه سابقا، فما بالنا بهذا العصر الذي تسلطت عليه اللهجات العامية، واللغات الأجنبية، وضعف المستوى التعليمي للغة العربية، مع هروب معظم مستعمليها من القاعدة النحوية العربية التي يرون فيها اغلالا تكبل حريتهم في التعبير والتواصل.

فبقدر ابتعادنا عن ساحة عرفت بالبيان والبديع وعلمت سر تميز نظم عن نظم، وسر اختلاف أسلوب عن أسلوب بقدر ابتعادنا عن فطاحنة البلاغة والفصاحة بقدر ما نبتعد عن فهم آي القرآن الكريم. لولا شفاعة التفاسير. "فإذا كان المعنى يحيل على الحال التي تصير إليها الأشياء والمسميات وعلى مقصد الكلام فإنه يعادل التفسير ويساوي التأويل كما يرى بذلك ابن منظور في لسان العرب"[1]. فإذا كان التأويل هو المرجع والمصير وأولته أي صيرته إليه، وحسب الجوهري: التأويل تفسير ما يؤول إليه الشئ، وقد أولته تأويلا وتأولته بمعنى كما ورد في لسان العرب[2]. وإن كانت بعض اللغويين الحداثيين يفرقون بين التأويل والتفسير، فيرون أن التفسير هو كشف ما انغلق من المعنى انطلاقا من النص وعودة إليه، والتأويل هو القراءة

[1] محمد عمر الصماري: النحو والنظم عند عبد القاهر الجرجاني، أعمال ندوة عبد القاهر الجرجاني، 33
[2] ابن منظور: لسان العرب، جزء 11، دار المعارف، ص 34.

الذاتية، وبذلك يكون لكل قارئ فهمه المحدد للنص الواحد، ليضيع بذلك النص الأصلي في زمرة الايديولوجيات التي توجه ذلك القارئ.

ثم إن الورع والتقوى أساسيان لكل من يحاول الاقتراب من مقاصد النص القرآني.. إذ يجنبان القارئ العمدة من الخوض فيما قد يمس قدسية الخطاب القرآني من جهة، وتجعلانه يستحضر رقابة الله فيما يقول وما يعتقد..

كان "**الجرجاني**" إذن من بين الذين خاضوا غمار هذا البحث مثبتا منذ البداية أن سر إعجاز القرآن الكريم هو النظم، أي طريقة توخي معاني النحو وأحكامه بين الكلم، وبتعبير آخر "النظم هو تفسير للمعاني في ضوء شروط لغوية وغير لغوية في ضوء مشاركة تأويلية تحاول الوقوف على المعنى الثاني"[1]، فكان "**الجرجاني**" أول من ربط النحو بالبلاغة وقال بصفة التلازم بينهما.

يؤكد "**الجرجاني**" أن سر اعجاز القرآن الكريم هو إعجاز بياني، أساسه نظمه المبهر المغاير للنظم البشري، وحين يهتم بإعجاز القرآن الكريم ويتحدث عن تلازم البلاغة والنحو في نظم بديع إنما كان يهتم بما يسميه بالأغراض والمقاصد.. فالمعنى ومعنى المعنى الذي يعني به الغرض والمقصد التداولي كان وراء أي نظام، وبناء نحوي ونظم لغوي.

ثم إن الاكتفاء بظاهر القول يمنع من إدراك المقصد من القول، ولنمسك بأطراف هذا المقصد وجب الاستناد إلى المعنى الحرفي. والنظر فيما بين المعنى الحرفي والمعنى الاستنتاجي من صلة، وملابسة، وإذا ما تم

[1] لمين جمعي: المعنى ومعنى المعنى في ضوء الانزياح الأسلوبي عند عبد القاهر الجرجاني من خلال كتابه دلائل الاعجاز، مجلة كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر، بسكرة 2019، ص 186.

ذلك تمكن السامع من فهم نوايا المتكلم وبلغ مقصده من الخطاب وتحققت وظيفة التواصل كما ارتضى لها المرسل أن تكون[1].

رغم أن الألفاظ أوعية للمعاني إلا أن معاني القرآن الكريم المنتقاة بعناية شديدة لا تخرج عن الغرض الذي ارتضاه الله سبحانه وتعالى لخطابه الكريم.. ودقة المعنى تابعة لدقة النظم القائم على المقصدية الخطابية لآي القرآن الكريم[2]، لذلك اهتم علماء مقاصد الشريعة اهتماما كبيرا بالربط بين مقاصد الشريعة وبين اللغة العربية عموما وفن البلاغة منها خصوصا[3].

وفي فصل مميز جعل له "**الجرجاني**" عنوان: **"في أن هذه المزايا في النظم بحسب المعاني والأغراض التي تؤم"** يقول "**الجرجاني**": "وإذ قد عرفت أن مدار أمر النظم على معاني النحو وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيه فاعلم أن الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها، ونهاية لا تجد لها ازديادا بعدها، ثم اعلم أن ليست المزية بواجب لها في أنفسها ومن حيث هي على الاطلاق ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام ثم بحسب موقع بعضها من بعض واستعمال بعضها مع بعض"[4]..

فالقرآن الكريم يتميز ويتمايز بكل ما فيه من لفظ وبناء ومعنى.. بغض النظر عن طريقة نظمه فهو إنما يحمل مقصدا محددا. سواء سهل الوصول إليه من خلال المدركات التي تحيط به أو صعب من خلال طريقة البناء وتخفي المعنى واستتار المقصدية الدلالية في المبنى البياني المميز.

---

[1] محمد الشيباني: كيفية تولد المعنى غير الحرفي عند الجرجاني من خلال أسرار البلاغة، أعمال ندوة عبد القاهر الجرجاني، ص154.

[2] أحمد مطلوب:عبد القاهر الجرجاني- بلاغته ونقده، ص

[3] عبد الرزاق عبد الرحمن السعدي: أثر البلاغة العربية في الكشف عن مقاصد الشريعة، ص82.

[4] عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ، ص 99

وفي معرض حديثه عن ارتباط المعنى باللفظ وأسبقية استدعاء المعنى على اللفظ يقول "**الجرجاني**": " وأنت إذا أردت الحق لا تطلب اللفظ بحال وإنما تطلب المعنى، وإذا ظفرت بالمعنى فاللفظ معك وازاء ناظرك"[1].. دحضا لنظرية "المعاني مطروحة في الطرقات".. دون أن ننسى أن المعاني التي يقصدها "**الجرجاني**" إنما هي تلك المعاني الدقيقة.. وليس أي معنى.. واللفظ إزاءك.. لن يكون ازاء أي كان إنما ازاء من أوتي الملكة اللغوية في مستواها الأعلى، لغة فوقية دقيقة المسلك بعيدة المأخذ قوية الحجة.

إن المقاصد عند "**الجرجاني**" مقيدة بالدقة في استخدام النحو وأصوله، فهو ما يفتأ يذكر بهذا المبدأ ويعطي أمثلة على هذه النقطة ويعيد ويكرر فيها.. أمثلة من القرآن الكريم ومن روائع البيان العربي خاصة ما تعلق بالشعر.. يقول في مثال له: "واعلم أن للخبر المعرف بالألف واللام معنى غير ما ذكرت لك، وله مسلك ثم دقيق ولمحة كالخلس يكون المتأمل عنده كما يقال يعرف وينكر"[2] .

أي أن الخبر المعرف بالألف واللام ليس كمثل الخبر النكرة في المقصد الدلالي.

ثم يضرب مثالا بقوله تعالى: "الله يستهزئ بهم" خبر من الله تعالى أنه يجازيهم على كفرهم واستهزائهم، وإذا كان كذلك كان العطف ممتنعا لاستحالة أن يكون الذي هو خبر من الله تعالى معطوفا على ما هو حكاية عنهم، ولا يجاب ذلك أن يخرج من كونه خبرا من الله تعالى إلى كونه حكاية عنهم وإلى أن يكونوا قد شهدوا على أنفسهم بأنهم مؤاخذون وأن الله تعالى يعاقبهم عليه..

---

[1] عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ، ص74.

[2] المصدر نفسه ، ص.ص. 180، 181.

و"لأن البلاغة العربية علم يكشف أسرار اللغة العربية"[1] نلاحظ في هذا المثال كيف أن "**الجرجاني**" يشرح لنا ويفسر المقصد من الآي من خلال شرحه لطريقة تموضع الألفاظ وحكمها الإعرابي، وانتظام أسلوب الخطاب.

ويردف "**الجرجاني**": وليس كذلك الحال في قوله تعالى "يخادعون الله وهو خادعهم. ومكروا ومكر الله". لأن الأول من الكلامين فيهما كالثاني في أنه خبر من الله تعالى وليس بحكاية. وهذا هو العلة في قوله تعالى: "وإذا قيل لهم لاتفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون. ألا إنهم هم المفسدون ولكن لايشعرون". إنما جاء "إنهم هم المفسدون" مستأنفا مفتتحا بألا لأنه خبر من الله تعالى بأنهم كذلك، والذي قبله من قوله: "إنما نحن مصلحون" حكاية عنهم، فلو عطف للزم عليه مثل الذي قدمت ذكره من الدخول في الحكاية، ولصار خبرا من اليهود ووصفا منهم لأنفسهم بأنهم مفسدون، ولصار كأنه قيل قالوا إنما نحن مصلحون وقالوا إنهم هم المفسدون: وذلك ما لا يشك في فساده[2].

مفاد هذا المثال أن الدقة في المبنى تتبعه الدقة في المعنى، وإن الله سبحانه وتعالى لا يستخدم خبرا أو عطفا، أو اضافة أو ما يعتقد أنه فضلة في كلامه إلا وله مقام محدد معين، ومعنى عميق، ومقصدا دلاليا تداوليا معينا..

ليؤكد "**الجرجاني**" مرة أخرى أن كلام الله سبحانه وتعالى إنما جاء على ما تعارف عليه العرب من استخدام نحوي وبلاغي ألفوه، فلم يخرج عن أنماط خطابهم، ولم يأت على ما لم يألفوه من كلامهم.. لقد

[1] عبد الرزاق عبد الرحمن السعدي: أثر البلاغة العربية في الكشف عن مقاصد الشريعة، ص 81.
[2] عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص.ص 223، 224.

"جاء على ما يقع في أنفس المخلوقين من السؤال فلما كان في العرف والعادة فيما بين المخلوقين... أخرج الكلام ذلك المخرج لأن الناس خوطبوا بما يتعارفونه، وسلك باللفظ معهم المسلك الذي يسلكونه"[1].

واعتماد لفظ بدل لفظ، ونظم بدل نظم إنما يحكمه الدقة في المعنى وعمق المقصد. فالشكر غير الحمد، والجلوس غير القعود، والود غير الحب، والجوى غير الصبابة، والمشرفي غير المهند، وغير القاطع وهكذا.. لا ترادف تام في اللغة العربية، وكل لفظة لها دلالتها الخاصة بها، تنطق مع غيرها وهي تنتظم في سلسلة كلم يعبر عن مقاصد محددة بذلك الاستخدام وفقط.

يقول "**الجرجاني**": "لا يكون لإحدى العبارتين مزية على الأخرى حتى يكون لها في المعنى تأثير لا يكون لصاحبتها. فإن قلت: فإذا أفادت هذه مالا تفيد تلك فليستا عبارتين عن معنى واحد، بل هما عبارتان عن معنيين اثنين: قيل لك: إن قولنا "المعنى" في مثل هذا يراد به الغرض والذي أراد المتكلم أن يثبته أو ينفيه"[2].

ولاختلاف التأويل في بعض آي القرآن الكريم المبني على البيان يرى "**الجرجاني**" أن الكلام يبنى على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلا بالخروج ... وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل. في جميع ذلك لا تفيد غرضك الذي تعني من مجرد اللفظ ولكن يدل اللفظ على معناه الذي يوجبه ظاهره ثم يعقل السامع من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنا ثانيا هو غرضك

---

[1] عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ، ص 230.
[2] المصدر نفسه ، ص 246.

كمعرفتك من كثير رماد القدر أنه مضياف ومن طويل النجاد أنه طويل القامة، ومن نؤوم الضحى في المرأة أنها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها[1].

ويردف "**الجرجاني**" مثبتا هذه القاعدة: "تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر"[2].

إذن معنى المعنى، الغرض والمقاصد لا يستشف من خلال التأويل الذي لاقاعدة له، إنما أساسه الاستدلال الخاضع لمؤشرات تثبت المعنى الضمني المتعالق بمعنى ظاهري ليس هو الأصل ولا يعني القصد، ويتحكم في هذا الاستدلال السياق سواء النصي أو سياق المقام، والعرب تقول لكل مقام مقال.

لا يمكن بحال أن تستخدم حدسك لاستشفاف معنى المعنى، أي المعاني الضمنية لتصل إلى مقاصد لم يقصدها المرسل، إنما الاستدلال ضروري، وهذا الاستدلال يخضع لشروط منها المعرفة الخلفية، المعرفة بكون العالم عادي، النظام المتعامل به في تلك اللغة والثقافة المحيطة به، بمعنى استخدام العقل، لذلك نجد البلاغة العربية تقسم المجاز إلى مجاز لغوي ومجاز عقلي.

ولأن القرآن الكريم رسالة للعالمين من البشر لسانه عربي وحرفه عربي، ونزل على ما كان يعرفه العرب من عرف لغوي متداول بينهم. فلن يستخدم اللون الأخضر ليعني به الأسود، ولن تستخدم اليد ليعنى بها العين، ولن يستخدم اللباس ليعنى به ثيابا معينة، فهناك منطق ومدارك عقلية ومفاهيم مشتركة بين البشر، كما أن هناك نواميس كونية لا تتغير، وقد راعى الخطاب القرآن هذه الأشكال والألوان والأصناف والقوالب التعبيرية والسلم المفاهيمي والنمط العربي الحجاجي في النص كله.

---

[1] عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 250

[2] المصدر نفسه ، ص251.

ثم إنه من المؤكد أن مقاصد الشريعة الاسلامية تعني الغايات التي وضعت الشريعة لأجل تحقيقها لمصلحة العباد. ولكن لا يعني ذلك أن أقول في القرآن ما ليس فيه، ولا يعني ذلك أن أخضع النص القرآني للأهواء والنزوات والرغبات لأجعله يتأقلم وفق إيديولوجية أومن بها. لذك لا يصح التأويل في القرآن (التأويل بمفهومه الحداثي) ، إنما ما يصح هو الاستدلال والاستنتاج حين تغيب عن أفهامنا معاني منطوية في المعاني الخفية التي نؤكد دائما انها هي المقاصد.

ومن المعلوم ضرورة أن "مقاصد القرآن هي المقاصد التي دارت عليها سور القرآن الكريم وآياته تعريفا برسالة الإسلام وتحقيقا لمنهجه في هداية البشر"[1].. حول هذه النقاط التي اتفق عليها جمهور العلماء دارت رسالة الاسلام. عبادة الله وحده لاشريك له، اخراج الناس من الظلمات إلى النور وكل ما تحت لائحته. من الكليات المشهورة. أو ما يسمى بالكليات الشرعية المحصورة في خمسة مقاصد وهي حفظ الدين وحفظ النفس وحفظ العقل وحفظ النسل وحفظ المال.

[1] عيسى بوعكاز: مقاصد القرآن الكريم ومحاوره عند المتقدمين والمتأخرين، مجلة الإحياء، عدد 20، جامعة باتنة 2017، ص86.

قائمة المصادر والمراجع:

-أحمد مطلوب: عبد القاهر الجرجاني- بلاغته ونقده، ط1 ، وكالة المطبوعات، الكويت، 1973

-خليل أحمد عمايرة: المسافة بين التنظير النحوي والتطبيق اللغوي – بحوث في التفكير النحوي والتحليل اللغوي، دار وائل للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2004

-عبد الرزاق عبد الرحمن السعدي: أثر البلاغة العربية في الكشف عن مقاصد الشريعة، مجلة التجديد، المجلد 12، العدد 24

- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تقد علي أبو زقية، دط، موفم للنشر، 1991

-عقيلة مصطفى: نظرية المعنى ومقاصد الخطاب من خلال دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، العدد 19، 2013.

-لمين جمعي: المعنى ومعنى المعنى في ضوء الانزياح الأسلوبي عند عبد القاهر الجرجاني من خلال كتابه دلائل الاعجاز، مجلة كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر، بسكرة 2019

-محمد الشيباني: كيفية تولد المعنى غير الحرفي عند الجرجاني من خلال أسرار البلاغة، أعمال ندوة عبد القاهر الجرجاني

-محمد عمر الصماري: النحو والنظم عند عبد القاهر الجرجاني، أعمال ندوة عبد القاهر الجرجاني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة صفاقس، الجمهورية التونسية.

المعاجم:

ابن منظور: لسان العرب، ج 11، دار المعارف.

ملخص:

إن ما قام به "**عبد القاهر الجرجاني**" في "دلائل الإعجاز" كان من أجل إثبات إعجاز القرآن الكريم، الذي يقوم على النظم المميز الذي تبنى قاعدة نحوية دقيقة، غير أن "**الجرجاني**" لا يفصل اللفظ عن المعنى ولا يرى أسبقية عنصر على آخر.

وحين يتحدث عن دقة معاني النحو فهو إنما يقصد أن تؤدي غرضا معينا.. أن تحمل رسالة وهدفا ومقصدا محددا عن طريق فك شفرة هذه اللغة، اعتمادا على الاستدلال والاستنتاج مع ما يملكه القارئ – وليس أي قارئ– من زاد لغوي وفصاحة وبيان عربي أصيل.

ليتمكن الإمام "عبد القاهر الجرجاني" ولأول مرة في تاريخ الدراسات اللغوية واللسانية العربية من الجمع بين البلاغة والنحو في نظرية الأغراض والمقاصد اعتمادا على النظم.

وهي ذاتها النظرية المعتمدة أو التي ينبغي أن تعتمد لاستشفاف مقاصد القرآن الكريم.

Alimam Abdul-Qaher Al-Jurjani worked on proving the miraculousness of the Noble Qur'an, in his book, Evidence of the Miracles.

Al-Jurjani does not separate the word and the meaning in his theory, which he calls the theory of systems.

The precise meanings of grammar lead to a specific message that the sender and receiver did not agree upon, but the recipient must reach

an understanding of it through inference and proof. Therefore, Abdul Qaher Al-Jurjani's theory was called the "Objectives and Intentions" theory